

التجديد في الأدب

للاستاذ أحمد أمين

٤

الشعر

من قديم حاول الأدباء والنقاد أن يضعوا تعريفاً للشعر فاختلقت تعاريفهم لاختلاف أنظارهم ، ولأن كلمة الشعر استعملت في معانٍ مختلفة ، فكان كل أديب يعرفه حسب نظره ، وحسب المعنى الذي يرمى إليه ، وكان سواء في ذلك أدباء العرب والفرنجة

ذلك أن الشعر - على العموم - يتكون من عنصرين أساسيين وهما الوزن والقافية أولاً ، وإثارة المشاعر ثانياً ، فإذا فقد الكلام عنصراً من هذين العنصرين لم يصح أن يسمى شعراً ، غير أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى عنصر الوزن فعرفه تعريفاً أفقده روحه ، فقالوا أن «الشعر هو الكلام الموزون المقفى» ومثله قول بعض الفرنج «أى كلام موزون يسمى شعراً سواء أكان جيداً أم رديئاً» وعلى هذا التعريف فالقافية ابن مالك شعر ، وقواعد الحساب المنظومة شعر ، والمتون الفقهية المنظومة شعر - كما أن بعض العلماء طغى عليه النظر إلى روح الشعر ومعناه فعرفوه تعريفاً أفقده موسيقاه ، كالذى قال بعضهم «الشعر فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت في هدوء» ومثله قول رسكن : «الشعر إبراز العواطف النبيلة من طريق الخيال» وهو تعريف يصح أن يكون للأدب كله نثره وشعره بل للفن جميعه من أدب ونحت وتصوير وموسيقى

وابن خلدون نقد التعريف بأنه الكلام الموزون المقفى وقال أنه ان صح تعريفاً عند العرويين لا يصح عند البلاغيين ، ثم اختار أن يعرفه «بأنه الكلام البليغ المبني على الاستعارة والوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله ، الجارى على أساليب مخصوصة ، وعيب هذا التعريف أنه عمل وأنه لم يلتفت إلى مزية الشعر وروحه وهو إثارة المشاعر ، واستقلال كل جزء منه في غرضه

ومقصده ليس من العناصر الأساسية التي يصح أن تدخل في التعريف فلو قلنا ان الشعر هو الكلام الموزون المقفى المنبعث عن عاطفة والمثير لعاطفة كان تعريفاً أقرب إلى الصواب فأذا وجدت نوعاً من الأدب يجمع الوزن والاتصال بالمشاعر فسمه شعراً والا فلا

والشعر يثير المشاعر بما فيه من خصائص - فأولاً - بأوزانه وقوافيه ، ولذلك كان المعنى الواحد اذا قيل مرة شعراً ومرة نثراً كان في الشعر أقوى أثراً - وثانياً - بلغته ، فللشعر لغة غير لغة النثر ، ولسنا نعنى بلغة الشعر الكلمات الغريبة أو أنواع البديع أو نحو ذلك ، فقد يكون الشعر في منتهى الرقى وكلماته في منتهى السهولة ، وهو كذلك خلو من كل أنواع البديع ، إنما الذي نعينه أن للشاعر ملكة لا يمكن أن نوضحها تمام الوضوح ، بها يستطيع أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أبعث للمشاعر . وهو كذلك يضعها في قوالب يتخيرها من القوالب العديدة والتراكيب اللغوية المختلفة ، وهذا هو ما يجعل الشاعر شاعراً فقد يكون عندنا شعور فياض كالشعور الذي عند الشاعر أو أغزر منه ولكن ليس لنا هذه القدرة على الافصاح واختيار الألفاظ والقوالب والتراكيب - ومن ثم كان من المستحيل ترجمة الشعر إلى شعر ، لأن الترجمة لا ترينا للشاعر من قدرة فنية على اختيار الألفاظ والأساليب ، والذي نترجمه هو المعنى الذي حواه الشعر وما فيه من تصوير وخيال ، ويعد المترجم أميناً اذا هو أستطاع أن أن ينقل هذا ، أما طريقة الأداء فلا يمكن ترجمتها ، نعم ان بعض الشعراء قد يقرأ القطعة من الشعر ويكون له قدرة فنية فيصوغ هو شعراً مستمداً من وحي ماقرأ ، وقد يجرى مع الأول في واد واحد وتكون له عنوبة مالا لأول ، ولكن ليس هذا ترجمة على الإطلاق كذلك يثير الشاعر الشعور بما عنده من لطف النظر أو الإلهام أو اللقائنة أو ماشئت فسمه ، فللشاعر روح غامض طبع عليه لا يكتسب بتعلم . به ينظر إلى الأشياء نظراً خاصاً ، وبه يبعث الشعور عند السامع . ولعل هذا هو الذي جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً ينفث فيه الشعر . ولأمر ما خلط العرب فسموا النبي شاعراً أحياناً وكاهناً أحياناً (وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تدكرون)

وللشاعر نظر باطن للحياة يغوص فيها ويستخرج معانيها ويعرضها في شعره - ولأن الشعر هو معنى الحياة كان شعر كل عصر مرآة له . وقد يما قالوا : (الشعر ديوان العرب) والحق أنه ديوان الأمم تسجل فيه حياتها وأفكارها ومشاعرها . فالشاعر يعطينا صورة روحية حية أكثر مما يعطينا إياها التاريخ . والشعراء عادة في مقدمة قومهم شعوراً ، وشعرهم إيدان بالفلسفة وإرهاص لها ، فهم يلهمون الشيء إلهاماً غامضاً ، ثم يتضح ما ألهموا به على مر الأزمان ، وتأتى الفلسفة بعد فتشريح وتحلل وتدلل .

أما الوزن في الشعر فهو موسيقاه ، وله قيمة كبرى في الشعر حتى عد أهم فارق بينه وبين النثر ، والشعر يحلو بالموسيقى الجيدة ، ويضعف شأنه اذا ساءت موسيقاه . وارتباط الشعر بالموسيقى أشد من ارتباط الفنون الأخرى كالنقش والتصوير ، حتى كان الرومان يقولون : « ان الشعراء ليسوا إلا مغنين يترنمون بشعرهم ، ويغنون به لأنفسهم ولمن شاء أن يردده بعدهم » ومن أنواع الشبه بين الموسيقى والشعر ما لاحظته بعضهم من أن كلا منهما يتنوع أنواعاً متماثلة . فالصوت يختلف عن الصوت من نواح أربعة : (١) من ناحية الطول والقصر (٢) والغلظة والرقّة (٣) والارتفاع والانخفاض (٤) ومن ناحية مصدر الصوت كعود أو قانون . وهذه النواحي الأربعة يمكن أن نراعيها في الشعر ، فن النوع الأول اختلاف التفاعيل طويلاً وقصراً ، فالرجز أقصر في التفاعيل من الطويل وهكذا . ولهذا الاختلاف تأثير كبير في الأذن الموسيقية .

كذلك نرى في الشعر ما يتناسب مع الشدة والضعف ، والغلظة والرقّة . فالشعر قد يناسبه - أحياناً - حروف وكلمات ضخمة قوية ، وقد يناسبه حروف وكلمات لينّة رخوة ، كالذي قالوا في قوله :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب؟
فالشطر الأول قوى شديد والثاني رخو ناعم

وفي الشعر ما يناسبه الهدوء والدقة كشعر الغزل ، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش ، ويناسبه أنشاده في قوة وجلبة كشعر الحماسة ونلاحظ في الموسيقى أن النغمة الواحدة اذا وقعت على

الكمنجة ثم وقعت بعينها على البيّانة كانت النغمتان مختلفتين تأثيراً ، وهذا يقابله في الشعر القافية ، فالقصيدة على قافية قد يكون لها أثر لا يكون إذا قيلت على قافية أخرى وهكذا

والشعر أقل تقدماً وأبطأ خطى من النثر ، سواء في ذلك اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وسبب ذلك على ما يظهر أن الشعر لغة العواطف ، والنثر لغة العقل ، والمشاعر والعواطف قليلة التغير بطيئة الرقي ، وما حدث فيها من تغير فأكثره تغير في الشكل لا في الموضوع ، أما العقل فراق أبداً ، وثاب في الرقي ومظهر ذلك الرقي العلى الذى نحسه من سنة الى أخرى ، ولأن الشعر تعبير شخصى وأعنى بذلك أن الشاعر يعرض علينا في شعره مشاعره ونظراته الى الحياة واحساسه بها ، أما النثر فعالمى انساني يعرض الشيء كما هو لا كما يرى ، تحس في الشعر دائماً بالشاعر يحدثك عن نفسه ، وتحس في النثر بعقل مخاطب عقلك ، وان شعرت بالنثر فمن وراء حجاب ، ومن أجل هذا خضع النثر للنطق ولم يخضع له الشعر ، ترى في الشعر غالباً ما لا يرضاه المنطق ، وتناقضاً لا يقره المنطق ، وتحكما في الحكم لا يؤيده المنطق ، وتخبّطاً وهراء يغتفرها العقل في الشعر ولا يغتفرها في النثر - وهذه الظاهرة وهى سير النثر الى الامام في سرعة وقفز ، وسير الشعر في بطء وتمهل ، هى التى جعلتنا نتذوق الشعر العربى في العصر العباسى وما بعده أكثر مما نتذوق النثر في ذلك العصر ، لأن الصلة بين نثرنا والنثر القديم صلة ضعيفة قد خالفناها كل المخالفة ولم يبق منها الا أساس التركيب الذى تقتضيه طبيعة اللغة ، بل أن مسافة الخلف بين نثرنا والنثر من عشرين سنة بعيدة كل البعد ، وعلى العكس من ذلك الشعر ، فالفرق بين الشعر القديم والحديث قليل تافه ومع هذا - فالشعر يجب أن يخضع لسنة النشوء والارتقاء ، ويجب أن يتقدم ويجارى الزمان كما حدث في الشعر الغربى

يجب ان يتقدم الشعر في كل من عنصريه عنصر الوزن وعنصر المعنى ، ففي الوزن نرى ان العرب في الجاهلية صبت شعرها في ستة عشر بحراً ، وكان خضوعها لهذه البحور لا لأنها حصرت كل ما يمكن أن يكون ، ولكن ابتكروا أولاً بحراً أو بحرین ثم جاء الخلف فزادوا هذه البحور شيئاً فشيئاً لا يهدبهم في الابتكار الا الأذن الموسيقية : وهم لا عيب عليهم في ذلك

ولكن العيب عيب من أتى بعدهم فقد سوا هذه البحور ولم يشاءوا ان يخرجوا عنها قيد شعرة، وقد تحكم العلماء والادباء في اذواق الناس فابوا عليهم أن يقولوا في غيرها أو ان يشدوا ولو قليلا عنها. وهو تقديس في غير محله، لأن أوزان الشعر كما قلنا هي موسيقاه، وكما تطورت الموسيقى في العصور واخترعت نغمات وولدت من القديم نغمات جديدة، وكانت موسيقى العصر العباسي غير موسيقى العصر الاموي، وهما غير موسيقى الجاهلية، كان واجبا ان يغير الشعراء موسيقى الشعر ولا يقفوا عند الحد الذي رسمه الجاهليون، وعجيب أن نسمح في عصرنا للموسيقى الشرقية أن تطعم بالموسيقى الغربية ونهيء آلاتنا للتوقيع عليها بهذه النغمات الجديدة، ونهيء آذاننا لسماعها ثم لانفعل ذلك في الشعراء نعم أخذ بعض الناس يتحللون من قيود البحور والقوافي الجاهلية كما فعل الأندلسيون بالموشحات وما إليها، ولكن وقف من بعدهم على اختراعهم ولم يسيروا على سننهم في التقدم يجب أن يتحرر نواحي الشعراء من هذه القيود ويشعروا بما يحسون، ويوقعوا على النغمة التي يرتضون، وليس الحكم بيننا وبينهم هو البحور الستة عشر، ولكن الحكم هو الأذن الموسيقية، والأذن الموسيقية وحدها، وكما نرجع في كل فن الى الخبيرين نستفتيهم ونحكم اليهم، فكذلك في هذا الضرب يجب أن نحكم الى من رقت أذهنهم الموسيقية وأذواقهم الفنية، وليس في هذا ضير ما على ثروتنا القديمة في الشعر، فأنا باخترنا عنا بحورا وأوزانا نزيد في ثروتنا الى ثروتهم كما نزيد في موسيقانا الى موسيقاهم وفي علمنا الى علمهم.

أما من حيث الموضوع ومعاني الشعر فجمال القول فيه أوسع، وتقدير الشعراء فيه أبين، ولئن كانت كل أمة تعد الشعر ديوانها تسجل فيه نزاعاتها وآمالها وحياتها، فأني أخشى أن يكون الشعر العربي سجلا ناقصا لم يدون فيه الا وقائع قليلة من نزاعات كثيرة، وصفحات ضئيلة من حياة حافلة مركبة معقدة. لقد دون الشعر كثيرا من وقائع المديح والثناء والغزل والخمرات وما إليها وهذا حسن، وهو ضرب من الشعر لا بد منه، ولكن ليس هذا كل مشاعرنا ولا أكثرها - لقد مررت في هذا العام على تلاميذ مدارس ثانوية خارجين من لعب الكرة فسمعت

بعضهم يصيح «يا حنى ديل العصفورة، ومدرستهاى المنصورة» فجرت من عيني دمعة على مانحن فيه من ضعة وانحطاط، وقلت أين الشعراء يضعون الأناشيد تجارى نفسية الطلبة، وترقى من مشاعرهم، وتزيد في روحهم حماسة وقوة، وتميز الطبقة المتعلبة من طبقة العامة وأمثالهم؟ وأتى كشافة العراق ينشدون الأناشيد المختلفة في المناسبات المختلفة، فلم يجد كشافة مصر ما يجيبونهم به ويساجلونهم فيه الا هراء من الكلام وسخفا من الغناء، ثم أين الشعراء يضعون أغاني للشعب وأغاني للمتعلين تناسب حياتهم وموقفهم الاجتماعى؟ نعم تنبسه بعض الشعراء لهذا ووضعوا أغاني أرقى مما وضع من قبلهم، ولكن أكثرها بكاء وحنين وذوبان، وهى من الأدب الذى سميت أدبا مائعا، والذى لا يصح لأمة ناهضة أن تقتصر عليه، بل أين شعراء الشرق الذين تغنوا بما حوته طبيعة بلادهم من جمال وأبداع فرقوا ذوق شعوبهم وأشعروهم بجمال الطبيعة، وغدوا عواطفهم وعودوهم تقدير الجمال والهيام به؟ لقد قصر شعراء العرب قدما وحديثا في هذا الباب، فلا نعثر منه في الأدب العربى الأعلى قليل، وهذا القليل لا يكفينا الآن ولا يسد رغباتنا، لان شعر الطبيعة قد رقى عند الأمم وأصبح مؤسسا على شيئين لا بد منهما، وهما علم بالطبيعة ومعرفة بقوانينها، وحب للطبيعة وهيام بها، ثم صياغة ذلك كله في قول ساحر جذاب.

وهذا الضرب من الشعر قطع فيه المحدثون من الغربيين شوطا بعيدا وسبقوا فيه من قبلهم بمراحل طويلة - وبعد هذا كله - أين الشعراء الاجتماعى العربى الذى يساير نزعات أمم الشرق ومطامعها وآمالها في الحياة؟ أن أمم الشرق تنزع الى الحرية وتأمل أن تتبوأ في العالم الإنسانى المكان اللائق بها، وتشدضروا من الإصلاح الاجتماعى ترى الحاجة ماسة اليه، وكلها مجال فسيح للشعر يلهب حماسها ويقوى إيمانها ويهديها سبل الحياة. فأين الشعراء الذين وقفوا هذه المواقف وقادوها قيادة صالحة؟ ان عواطف الأمم الشرقية ساغبة تنتظر من يغذيها ولا تجده. الحق أن أدباء الشرق قد أدوا رسالتهم خيرا بما أداها أدباء الشعر، وفي كُسل من الفريقين تقصير؟